(الياقوتة العجيبة) من كتاب ألف ليلة وليلة

كتاب طاف الدنيا بأرجائها، وتمثَّل فيه سحر الشرق، وتُرجِم إلى معظم لغات العالم. طُبِع بالعربية لأول مرة في ألمانيا عام (1825م) بعناية المستشرق (هايخت) فأنجز منه ثمانية أجزاء، مع ترجمته إلى الألمانية، وتوفي قبل إتمام الكتاب، فأنجز ما باقي منه تلميذه فليشر المتوفى عام (1888م). ثم طُبِع مرات لا تحصى أهمها: طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر1960م.

تقول الحكاية الأم التي تبسط ظلالها على حكايا الكتاب: إنَّ ثمةَ ملكًا يُدعى شهريار اكتشف خيانة زوجته له فقتلها، وإنَّه لم يكتفِ بقتلها هي وجواريه وعبيده، بل صار كل يوم يأخذ بنتًا بكرًا فيتزوجها ويقتلها من ليلتها، فضجَّ الناس وهربت بناتهم، وكان لأحد وزارئه بنتًا تسمى شهرزاد؛ فسألت أباها الوزير أن يقدِّمها لشهريار قائلة:(فإمَّا أن أعيش، وإمَّا أن أكون فداءً لبنات المسلمين وسببًا لخلاصهن). وكان الوزير يطلع كل صباح بالكفن تحت إبطه، بينما ابنته شهرزاد تؤجل ميعاد موتها بالحكاية تلو الحكاية، حتى أنجبت للملك ثلاثة أولاد في ألف ليلة قضتها بقصره، وجعلته بحلاوة حديثها وطرافة حكاياتها خلقًا آخر. ولا شك في أننا غير قادرين على تلخيص أثر هذا الكتاب منذ شاع ذكره في أوروبا، وليس في وسعنا هنا إلّا تقديم أنموذج منه بكتاب (غوته وألف ليلة وليلة) للألمانية كاترينا مومسن، حيث عاش غوته منذ نعومة أظفاره مع هذا الكتاب، وكان يحفظ حكاياته إلى درجة أنَّه كان يؤدي دور شهرزاد حينما تتاح له الفرصة، وكان في صباه وفي شيخوخته يستعمل رموز الحكايات وصورها في رسائله، وكان بالنسبة له (كتاب عمره). كلّ ذلك والترجمة الألمانية لم تكن قد أُنجزت بعد، وإنَّما كان يرجع إلى الترجمة الفرنسية المجتزئة التي قام بها المستشرق الفرنسي (أنطوان غالان) خلال المدة (1704– 1717م) قبل أن تظهر الترجمةُ الألمانيةُ عام (1825م).

ممّا جعل غوته يُمضي آخر أعوامِ حياتهِ مع هذه الترجمة، وكانت وفاتُه عام (1832م). ونشير هنا إلى الطفرة التي اكتسبتها الدراسات الدائرة حول (ألف ليلة وليلة) نتيجة لتوثيق محسن مهدي للنسخ العربية في عمل صدر له في ليدن (1984م). وانظر مجموعة الرسومات التي صاحبت الترجمات الغربية لألف ليلة وليلة في كتاب (ألف ليلة وليلة: مقالات نقدية وببليوغرافية) كامبريدج، دار مهجر 1985م بالإنجليزية.

تبدأ الليالي بقصة الملك شهريار الذي يعلم عن طريق المصادفة بخيانة زوجته فيأمر بقتلها وقطع رأسها، ثم ينذر على أن يتزوج كلَّ ليلةٍ فتاةً من مدينته ويقطع رأسها في الصباح؛ انتقامًا

Scanned with CamScanner

من النساء حتى أتى يوم لم يجد فيه الملك من يتزوجها؛ فيعلم حينئذٍ أنَّ لدى وزيره بنتًا نابغةً اسمها شهرزاد، فيقرر أن يتزوجها، وتقبل هي بذلك؛ فتطلب شهرزاد من أختها دنيا زاد أن تأتيَ إلى بيت الملك، وتطلب من أختها أن تقصَّ عليها وعلى الملك قصة أخيرة قبل موتها في صباح ذلك اليوم، فتفعل أختها دنيا زاد ما طلب منها.

في تلك الليلة قصّت عليهم شهرزاد قصة لم تُنهها وطلبت من الملك أن لو أبقاها حية فستقصّ عليه بقيَّة القصة في الليلة التالية، وهكذا بدأت شهرزاد في سرد قصص مترابطة، بحيث تكمل كلّ قصة في الليلة التالية، حتى وصلت بهم الليالي إلى ألف وليلة واحدة، في ذلك الوقت كان الملك قد وقع في حبها، فأبقاها زوجة له، وكف عن قتل الفتيات، واحتفلت مدينة الملك بذلك لمدة ثلاثة أيام. ومن بين القصص، اخترنا قصة: (الياقوتة العجيبة) من كتاب (ألف ليلة وليلة)، وفيها تبدأ شهرزاد القُول:

كان "نور الدين" تاجرا غنيا يعيش في إحدى مدن آسيا البعيدة، وكان محبا للأسفار والتنقل في البلدان، فيشتري البضائع ويبيعها، فيعود عليه ذلك بربح وفير أتاح له العيش في نعمة دائمة. وفي يوم من الأيام، علم التاجر نور الدين أن قافلة تستعد للسفر إلى مدينة بغداد، فاشترى بضائع كثيرة ونقلها على الجمال وسار بها مع القافلة، يمني نفسه برحلة ممتعة يحقق بها أمنيته بالربح الوفير ومشاهدة بلاد الله الواسعة.

بعد مسيرة عدة أيام وصلت القافلة إلى سهل فسيح مملوء بالأشجار المثمرة، ويخترقه نهر ذو مياه عذبة صافية، فتوقفت القافلة وأنزلت أحمالها، ونصبت خيامها لتستريح بعد عناء السفر الطويل.وفي صباح أحد الأيام استيقظ نور الدين باكرا وذهب يتنزه بين الأشجار ويبترد (يغتسل) بمياه النهر المنعشة، وهو مأخوذ بجمال الطبيعة حتى مضى أكثر النهار. ولما عاد لم يجد للقافلة أثرا. فقد حملت أمتعتها وتابعت مسيرتها إلى بغداد، دون أن يفطن أحد إلى غياب أحد أفرادها.

بقي نور الدين مذهولا من هول المفاجأة، واحتار ماذا يفعل، ولاسيما إنه لا يدري أي طريق سلكتها القافلة. قضى نور الدين ليلته نائما فوق أحد الأغصان؛ خوفا من الوحوش المفترسة، وفي الصباح سار على غير هدى حتى أنهكه التعب، فجلس تحت شجرة ليستريح.وبينما هو يحدق في ما حوله، لمح من خلال التراب حجرا كريما يتلألأ بريقه في ضوء الشمس، فنهض مسرعا والتقطه وخبأه في طيات ثوبه، ثم تابع سيره والجوع يكاد يهلكه، حتى لاحت له عن بعد قباب ومبان ضخمة ومآذن شامخة، فولى وجهه شطرها، فإذا به يجد نفسه في مدينة نظيفة الشوارع حسنة الترتيب واسعة. فسار فيها على مهل وقد هده الجوع والتعب والإرهاق حتى قادته قدماه إلى قصر

Scanned with CamScanner

فخم تعلوه القباب، ووجد على بابه رجلا تبدو على محياه أمارات الطيبة والمروءة. اقترب نور الدين من بواب القصر وحياه في أدب وقال له: هل من وسيلة يا سيدي تدلني عليها للحصول على طعام أسد به جوعي؟، فقد مضى علي يومان كاملان لم أذق فيهما طعاما.فقال البواب: إن المدينة مليئة بالمطاعم، فلم لا تذهب إلى أحدها وتتناول من الطعام ما تشاء؟

فأجابه نور الدين في إعياء وتردد: إنني غريب مسكين لا أملك نقودا. فقد ضاعت أموالي وبضاعتي مع القافلة التي فقدتها وهي في طريقها إلى بغداد، وزاد قائلا: ولكني أملك هذا الحجر المتلألئ. ثم أخرج من بين طيات ثوبه الحجر الأحمر الذي وجده في الطريق وقدمه إلى البواب الطيب. ما كاد البواب يرى الحجر الكريم حتى فتح فمه مندهشا، وقال لنور الدين: أتملك مثل هذا الحجر الكريم النادر، ثم لا تجد بعد ذلك ثمن وجبة من الطعام؟. اذهب يا رجل توا إلى سلطاننا العظيم وقدم له هذا الحجر، وسيكافئك عليه مكافأة سخية. إنها ياقوتة ثمينة ستزدان بها مجموعة السلطان القيمة. دهش نور الدين لهذا الكلام وأسرع الخطى نحو قصر السلطان العظيم، وطلب إلى الحاجب مقابلة السلطان لأمر مهم.سمح السلطان لنور الدين بمقابلته، فأدخل قاعة العرش، حيث شاهد السلطان يجلس في هيبة ووقار وحوله الأمراء وكبار رجال الدولة.تقدم نور الدين من السلطان مبهور الأنفاس، وأظهر الياقوتة الحمراء وقال في أدب: قدمت يا سيدي من بلاد بعيدة لأقدم لكم هذا الحجر الكريم النادر لعلمي بشغفكم باقتناء الأحجار الكريمة.أخذ السلطان الياقوتة وقلبها بين يديه مبهورا من كبرها وجمالها، ثم أمر بضمها فورا إلى مجموعته النادرة، وكافأ نور الدين بسخاء وكرم.

مضت الأيام.. وأحب السلطان أن يمتع بصره بتأمل الياقوتة الجديدة، فأمسك بها وأخذ يقلبها بين يديه، وفجأة امتلأت القاعة بدخان ملون كثيف، ثم انقشع الدخان عن شاب وسيم الطلعة، فاخر الثياب، فذهل السلطان، ولكنه سرعان ما استجمع شجاعته وهدوءه وقال للشاب: من أنت؟ وما الذي أتى بك إلى هنا؟. فأجاب الشاب بصوت هادئ: أنا يا سيدي أمير الياقوت، وإن لوجودي هنا قصة لا أستطيع البوح بها، ولكني أعرض عليك خدماتي، فمرني بما تشاء وعلي الطاعة.أطرق السلطان برأسه إلى الأرض مفكرا.

ثم تقدم نحو الشاب، وقال له: إن الله أرسلك إلينا في الوقت المناسب. ففي مثل هذا اليوم من مطلع كل شهر يفد علينا تنين مخيف، يهددنا ويهدد رجالنا ونساءنا وأطفالنا، ولا يكف عنا شره حتى نقدم له شابا من خيرة شباب بلدنا ليلتهمه ويسد به جوعه، ثم ينصرف من حيث أتى ليعود في الشهر التالي فنقدم له شابا آخر، حتى بتنا ونحن من شره في بلاء عظيم. ثم تابع السلطان

Scanned with CamScanner

كلامه: فهل باستطاعتك أيها الشاب النبيل أن تخلصنا من شر هذا التنين؟. فأجاب الشاب في ثقة وحزم: نعم يا مولاي. أنا واثق من قدرتي على تخليصكم من شر هذا التنين، على شرط أن تأتيني بسيف بتار وترشدني إلى مكانه.فأمر السلطان بتلبية طلبه فورا.

في اليوم المحدد الذي اعتاد فيه التنين الحضور لالتهام فريسته، كَمِنَ أمير الياقوت في مكان خفي، وما هي إلا لحظات حتى اهتزت الأرض وسُمعت ضوضاء شديدة ارتجت لها أرجاء المكان، ثم ظهر التنين المخيف، والشرر يتطاير من عينيه وينبعث اللهب من بين أنيابه الحادة. ولكن ذلك لم يرهب أمير الياقوت الذي يتمتع بقوة سحرية خارقة، بل تقدم بخطوات ثابتة نحو التنين. ولما أصبح على قيد خطوات منه رفع سيفه وضربه به ضربة شديدة فصلت رأسه عن جسده الرهيب.

أسرع أمير الياقوت إلى السلطان ليزف إليه بشرى القضاء على التنين المخيف. سر السلطان من ذلك وعانق الشاب وراح يقبله بتأثر وفرح وإعجاب، وقال له وهو في غمرة الفرح: لن أسألك أيها الشاب عن سر مجيئك إلينا، ولكني كنت قد قطعت عهدا على نفسي أن أزوج ابنتي "نور الحياة" لمن يخلصني من شر هذا التنين، وها أنا اليوم قد حققت لي هذا الأمنية؛ لذلك فإن ابنتي ستصبح منذ هذه اللحظة زوجة لك إن رغبت في ذلك.

رحب أمير الياقوت بالزواج من نور الحياة، فسر الملك بذلك سرورا عظيما، وأمر بأن تقام الزينة في جميع أنحاء المملكة، وأن تعم الأفراح جميع الناس، فقد صار أمير الياقوت زوجا لابنة الملك.سكن الأمير وزوجه نور الحياة قصرا جميلا، وعاشا في سعادة وهناءة. ولكن سحابة من الكآبة كانت تخيم فوق هذا البيت السعيد، وتنغص على الأميرة حياتها. كانت تعلم أن زوجها أمير الياقوت يحتفظ في قرارة نفسه بسر خفي يأبى أن يبوح به لأحد، وكثيرا ما سألته أن يكشف الستار عن هذا السر، ولكنه كان في كل مرة يحذرها من إثارة هذا الموضوع أمامه مرة أخرى.

في ذات يوم، كان العروسان أمير الياقوت ونور الحياة، يتنزهان على شاطئ البحيرة حول القصر. أصرت نور الحياة على أن تعرف سر زوجها الخفي، وألحت عليه. وما إن بدأ بالكلام حتى ثارت موجة عاتية من عرض البحيرة، وتقدمت نحو العروسين، واختطفت أمير الياقوت. ورأت نور الحياة زوجها وقد خطفته هذه الموجة وابتلعته في غمضة عين.دب الخوف في قلب الأميرة، وأسرعت عائدة إلى القصر في ذهول وهي تبكي زوجها الذي ابتلعته المياه، وقصت على والديها ما حدث لزوجها. وسرعان ما انتشر الخبر في أرجاء القصر، فحزن الجميع لحزن الأميرة، وأخذ السلطان يواسيها محاولا أن يخفف عنها مصابها الأليم. ولكن الأميرة استسلمت لحزنها،

Scanned with CamScanner

واتخذت من غرفتها ملجأ تبكي فيه زوجها الحبيب الذي لم تستطع مرور الأيام أن تمحو ذكراه من خاطرها.

وفي إحدى الليالي، وكان الهم قد أخذ بها كل مأخذ، خرجت من القصر في ضوء القمر، وسارت على محاذاة البحيرة في المكان الذي فقدت فيه زوجها. ولما نال منها التعب، جلست تحت جذع شجرة تبكي ذكرى زوجها حتى مضى من الليل نصفه، وهي ذاهلة عما حولها.فجأة سمعت أصواتا غريبة تنبعث من وسط البحيرة، ثم انجلت الأصوات عن مشهد غريب أذهلها وكاد يفقدها عقلها. رأت جماعة من الجنيات الصغيرات يفرشن الأرض حول البحيرة، بالحشائش الخضراء والأزهار الملونة، ثم انشقت المياه عن مركب كبير يتقدمه شيخ عجوز يمسك بيده شابا تتدلى على جيبه ياقوتة حمراء كبيرة.. ثم خرجت من بين الأمواج راقصة حسناء تحمل بيدها دفا تضرب عليه وترقصُ على نغماته مما جعل أمير الياقوت يعجب بها ويلاحقها بعينيه.عجبت نور الحياة لهذا المشهد الغريب، وتملكتها الغيرة فاندفعت بلا وعي نحو الراقصة وانتزعت الدف من يدها وراحت تضرب عليه وترقص على نغماته رقصا أثار إعجاب الأمير والشيخ العجوز ودهشتهما.تقدم الشيخ العجوز من نور الحياة وخاطبها قائلا: أيتها الأميرة نور الحياة، إنني أعرف قصتك مع ولدي أمير الياقوت، ولكنك أنت المسؤولة عما حدث لك وله؛ لأنه ممنوع عليه أن يذيع سره. ولكني بعد أن رأيت رقصتك الجميلة فإني على استعداد لأن ألبي لك أي رغبة تريدين. فأجابته الأميرة في توسل: أريد أن تعيد لي زوجي الحبيب.فقال الشيخ العجوز بصوت ملؤه العطف والحنان: اسمعي يا بنيتي، هل تعدينني بأن تكوني زوجة مطيعة لا تتدخل بشؤون غيرها، ولا تسأل زوجها عن سر قصته؟ فقالت نور الحياة على الفور: أعدك يا سيدي بأن أكون كما رغبت. وما هي إلا لحظة حتى اختفى الموكب، وبقي أمير الياقوت إلى جانب الأميرة نور الحياة. وهكذا عاشا حياة جديدة كلها سعادة واطمئنان.

Scanned with CamScanner